

ثورة الزعاطشة (1848)

د. إبراهيم مياسي

عرفت الجزائر خلال القرن الماضي عدة ثورات شعبية خالدة، منها ثورة الزعاطشة التي تعد حلقة مضيئة من سلسلة بطولات الشعب الجزائري الذي ثار من أجل استعادة حريته وكرامته، وجاهد لطرده الغاصب المحتل، وعدم السماح له بالتغلغل في أعماق الوطن.

وكما هو معروف فإن الثورات والحروب تمر حتما بالخطوات الأساسية التي هي الأسباب والمراحل ثم النتائج.

أسباب الثورة

لهذه الثورة أسباب عديدة مترابطة ومتداخلة مع بعضها البعض يمكن حصرها في النقاط التالية:

1 - لا شك أن أول سبب لهذه الثورة هو رفض الشعب القاطع للإحتلال الفرنسي وهو بذلك يعتبر من أقوى الأسباب وأهمها لكفاح الشعب الجزائري ومقاومته للإستعمار الدخيل على البلاد والعباد.

2 - صدى الأحداث الخطيرة التي حصلت على الساحة الفرنسية ذاتها والمتتمثلة في وقائع الثورة الفرنسية لسنة 1848 وعزل الملك الفرنسي لويس - فيليب والإطاحة بنظامه وقيام الجمهورية الفرنسية الثانية كل ذلك أثر على الحياة السياسية بالجزائر فقد عزل الحاكم العام للجزائر الدوق دومال (Le Duc D'AUMAL) ابن الملك لويس - فيليب وتعويضه بالجنرال كافانيك

- (63) - عمار هلال: تطور حركة الإصلاح بالجنوب الجزائري، مجلة الثقافة، المرجع السابق.
- (64) - الكاميلى عبد الله بن محمد: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، قسنطينة 1966.
- (65) - محمد الصالح الجابري: المرجع السابق، ص 38.
- (66) - انظر عنه:
- محمد الصالح الجابري: المرجع السابق، ص 38.
- عادل نويهض: المرجع السابق، ص 19.
- (67) - انظر عنه مثلا:
- فليب دي طرازي: تاريخ الصحافة العربية، 4 أجزاء، بيروت، 1933/1913.
- محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 1، ص 213 والجزء الثاني، ص 227.
- محمد الهادي السنوسي: شعراء الجزائر، ج 1، ص 109 انظر عنه كذلك مجلة الأصالة، و: نهاب، عدد 115، أكتوبر 1921، ومحمد ناصر: المقالة الصحفية، وغيرها كثير.
- (68) - من العلماء الجزائريين الذين عاشوا في نفس الفترة، والذين كانت لهم علاقة ثقافية وعلمية بتونس، يمكن ذكر: السوفي إبراهيم (1307-1353هـ)، (1881-1934م)، وحسن بولحيال، المولود (1315هـ)، (1897م)، ومامي اسماعيل (1308-1376هـ)، (1889-1956م)، والزهري محمد السعيد (1318-1376هـ)، (1899-1956م).
- (69) - انظر عنه:
- الهادي السنوسي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، جزآن، تونس 1927/192، ج 1، ص 70.
- محمد ناصر: المرجع السابق، ج 2، ص 227، ومجلة الثقافة عدد 24، والشهاب، ج 12، مجلد 5، وعادل نويهض، المرجع السابق، ص 153.
- (70) - محمد علي دبور: المرجع السابق، ج 1، ص 380 وج 2، ص 38، وكذلك المدني: المرجع السابق، ج 1، ص 156، وعادل نويهض: المرجع السابق، ص 194.
- (71) - عادل نويهض: المرجع السابق، ص 157.
- (72) - انظر فيما سبق إثبات المصدر.
- (73) - عادل نويهض: المرجع السابق، ص 309.
- (74) - وهو من الذين ظلمهم وقهرهم المهتمون بالتاريخ، لا لسبب، ولكن لأنه أصلا من جهة معينة ... وما يقال عن مفدي زكرياء، يقال عن كثير من معاصريه.

(CAVAIGNAC) (1) وذلك يوم 3 مارس 1848 ثم تلاه رحيل عدة كتائب من الجيش الفرنسي من الجزائر لتشارك في الثورة الفرنسية بفرنسا نفسها وتعمل على إخماد الفتنة.

وفي نفس الوقت إنتشرت أخبارا مفادها أن بريطانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا (2) وأنها تستعد لشن حملة عارمة على الإحتلال الفرنسي في الجزائر.. وقد وصلت هذه الأخبار إلى منطقة الزيبان عن طريق العمالة البساكرة بالعاصمة.. والذين يعودون إلى بلادهم من حين لآخر.. فأشاعوا هذه الأنباء المثيرة والتي فهمها أهل الزعاطشة على أن ساعة الخلاص والتحرر قد حانت.. فرفعوا لواء الثورة والجهاد (3).

3 - كان للظروف العسكرية التي عاشتها مقاطعة قسنطينة الدور الهام في تهيئة الفرص المواتية للشيخ بوزيان - زعيم ثورة الزعاطشة - لإعلان الجهاد.. ذلك أن جيوش المقاطعة قد جهزت لقمع الثورات المشتعلة هنا وهناك، في كل من الزواغة وبني يعلى وبني مليكش بجبال جرجرة... وثورة أولاد دراج بالحضنة وأولاد فرج بمنطقة بوسعادة.. وغيرها. وقد أدى ذلك إلى تناقص عدد القوات الفرنسية المرابطة بمركزي باتنة وبسكرة. والتي لم يزد عددها عن ثمانمائة (800) رجل بالإضافة إلى غياب قائدهم سان جرمان (SAINT-GERMAIN) (4) عن دائرة بسكرة.. فاستغل الشيخ بوزيان كل الظروف لإعلان حركته الجهادية.

4 - أمل الشيخ بوزيان في مواصلة الثورة التي قادها الأمير عبد القادر طيلة سبعة عشر عاما. ذلك أنه كان تابعا لدولة الأمير. وكان يشغل منصب شيخ على واحة الزعاطشة ضمن موظفي إدارة الأمير بالمنطقة.

وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه كان من المرابطين والأشراف.. وأنه كان محاربا شجاعا، ومن أحقق الرماة. وأن سمعته كانت واسعة وشخصية محترمة.. وقد حارب ضد جنود الحاج أحمد باي خلال حصار الزعاطشة سنة 1831 (5) فضلا عن نفوذه المالي.

ورغم استعمال العدو لكل الوسائل الجهنمية من أجل معاقبة الثوار والمجاهدين ليكونوا عبرة للآخرين.. كالإعدام والتعذيب والمصادرة والإتلاف والحرق.. وحتى الترويض والتدجين وشراء اللطم.. فإن شعلة الثورة لم تنطفئ.. بل استمرت مرفوعة يسلمها كل ثائر إلى سلفه، لذلك فإن الشيخ بوزيان قد أخذ المشعل عن الأمير عبد القادر لمواصلة الكفاح في سبيل الله والوطن.

5 - إنتشار الروح الدينية والوطنية للحفاظ على كيان الشعب العربي المسلم في الجزائر، الذي بدأ يتعرض للتحطيم والقضاء على شخصيته الوطنية من طرف السياسة الفرنسية في الجزائر، ذلك أن المواجهة ليست عسكرية فقط بل هي حرب حضارية أيضا.

كما أن للواعز الديني دوره الفعال في تعبئة المجاهدين.. فقد اعتمد الشيخ بوزيان في كسب ثقة الملتفين حوله. وتقوية عزيمة مؤيديه وترسيخ إيمان كامل السكان بما كان يدعو إليه بأن النصر مؤكد.. وهذا حسب ادعائه لرؤية النبي محمد عليه أفضل الصلاة وأبهى السلام في المنام (6) وأن الرسول الكريم قد قال له بأن عهد الكفار قد انتهى، وسيبدأ عهد المؤمنين، وبأنه مكلف بمحاربتهم وإخراجهم من الجزائر (7).

6 - لا شك أن للدافع الاقتصادي الدور الهام في اشتعال هذه الثورة حيث ارتفعت الضرائب على النخيل ابتداء من شهر مارس 1849 من 0.25 فرنك إلى 0.40 فرنك (8) للنخلة الواحدة.. والملاحظ أن هذا الإرتفاع في الضرائب مبالغ فيه أدى إلى تيرم السكان (9) كما ألغت السلطات الفرنسية جميع الإمتيازات القديمة للمرابطين.. والقاضية بإعفائهم من الضرائب. ومن بينهم الشيخ بوزيان الذي استغل هذه الزيادة في إثارة السكان ضد الإحتلال.

ومهما يكن فإن الظلم الإقتصادي هو من الدوافع الهامة لإشتعال الثورة، غير أنه ليس بالدافع الأساسي لأن الجزائريين يثورون غالبا بدافع الشرف والدين والوطن، ويدل على ذلك تضامن سكان الجهة مع الثوار (10).

إندلاع الثورة

هكذا تضافرت كل هذه العوامل لإندلاع الثورة، والتي أشعل فتيلها.. تصرفات وعجرفة الملازم سيروكا (SEROKA) حيث لاحظت السلطات الفرنسية نشاطا متزايدا للشيخ بوزيان، الذي استدعى رؤساء القبائل والأعراش، فتوافدت عليه الوفود من كل جهة لتدارس الأوضاع، ولتهيئة الشروط الضرورية للثورة كجمع المال وشراء السلاح وتخزين المؤن وغير ذلك، وأقيمت بهذه المناسبة الولائم وذبحت الذبائح وانتشرت البهجة والأفراح لأن الخلاص من كابوس الإحتلال الفرنسي قد قرب.

واستطاع الشيخ بوزيان أن يقنع الجميع ويحظى بثقتهم ويوحدهم تحت راية الدين الحنيف والجهاد المقدس.. فتكثرت واثارت ضد السلطات الفرنسية التي جاءت تجمع الضرائب في ذلك الوقت.

كذلك أمر الوالي العام ضباط المكاتب العربية بأن يقبضوا على الثائرين.. الرافضين للإحتلال الفرنسي، فقام الملازم سيروكا نائب قائد المكتب العربي ببسكرة بالتحرك نحو الزعاطشة للقبض على الشيخ بوزيان (11)، وأصطحب معه شيخ بلدة طولقة ابن الميهوب صحبة بعض من رجاله الفرسان.. وتوجه الجميع إلى واحة الزعاطشة حيث وجدوا الشيخ بوزيان يتجول وحده في البطحاء التي تتوسط القرية، فطلب منه الضابط الفرنسي أن يتوقف ويذهب معه إلى مقر القيادة، وأمره أن يركب بغلة معدة لهذا الغرض.. ويتبعه إلى بسكرة.

إمتثل الشيخ بوزيان للأمر وصعد على ظهر البغلة، ثم فجأة مزق خيط سبخته فتناثرت حباتها على الأرض، فنزل ليتظاهر بجمعها، وهو بذلك يريد أن يربح الوقت.. ليستعد أنصاره للمواجهة، وفجأة سرعان ما انطلق الرصاص من بنادق المجاهدين أفزعت الفرقة العسكرية الفرنسية، فأسرع الضابط الفرنسي ومن معه إلى باب القرية لفتحه بصعوبة ثم لانوا بالفرار تاركين وراءهم حصانين وبرنوسين أحمرين وبندقية.. اغتنمها سكان الزعاطشة.. الذين خرجوا عن بكرة أبيهم بأسلحتهم (12).. وكانت هذه الحادثة بمثابة الشرارة الأولى التي أشعلت هذه الثورة العارمة.

وفي بسكرة قدم الملازم سيروكا تقريراً مفصلاً إلى القيادة العليا، أخبرها فيه بأن جميع السكان في واحات الزيبان مستعدون ويناصرون الثائر بوزيان، وأن الجهاد (النفيير) قد أعلن من مآذن مساجد القرى.

وعلى إثر هذا التقرير انتقل الضابط دويوسكييه DUBOSQUET رئيس المكتب العربي إلى الزعاطشة ليطالب من السكان أن يسلموا له الشيخ بوزيان فرفضوا الإنصياع وقال له المجاهدون: «إننا نرفض أن نسلمكم الذي تطلبون وأنتا سنقاتل عن آخرنا رجالاً ونساء من أجله» (13).

تيقن الضابط دويوسكييه أن روح الثورة قد انتشرت في المنطقة وأن سكان فرفار وفوغالة مستعدون لحمل السلاح دفاعاً عن الزعاطشة وأن شيوخ بوشقرون وطولقة قد تخلوا عن أوامر السلطات الفرنسية.. لهذا أدرك الضابط الفرنسي أن وضعه في هذا الموقف المحرج ضعيف فتراجع إلى بسكرة. ليتخذ الإجراءات اللازمة لمعالجة الموقف.

لذلك سارع النقيب لاقرونية LAGRENEE بإعطاء أوامره لشيخ العرب بوعزيز بن قانة بأن يجمع قواته من طرف القوم ويحاصر بهم واحات الزعاطشة وفرفار وإيشانة، ويعزلهم عن باقي القرى ويمنع عنهم المدد.

وكان النقيب يعتقد بإجرائه هذا أنه سيحقق النتائج المرجوة وهي أن هذه القرى لن تتوان في طلب الأمان، خاصة بعد الأخبار التي تفيد بوصول الطابور الفرنسي الذي سيضع حدا لهذا الشغب (14).

مراحل الثورة

مرت ثورة الزعاطشة بثلاث مراحل أساسية وهي:

- مرحلة انتصار الثورة.
- مرحلة حصار الزعاطشة.
- مرحلة الهجوم الكاسح للفرنسيين.

1 - المرحلة الأولى

بدأت هذه المرحلة بوصول القوات الفرنسية إلى الزعاطشة يوم 16 جويلية 1849 تحت قيادة العقيد كاربوشيا (CARBUCCIA) فشدد الحصار على الواحات.. لخنق الثورة وإخمادها في مهدها.

والتخلص من زعيمها بوزيان من أجل إرجاع الأمن واستتابة في المنطقة لكنها فوجئت بصلاية الثورة وإقدام المجاهدين الذين أمطروا الثوات الفرنسية بوابل من الرصاص قضت على العديد من جنودهم، وبعد ساعات طويلة من الإقتتال بين الطرفين تأكد العقيد كاربوشيا من هزيمته (15) فأمر ما بقي له من الجنود بالرجوع إلى الخلف.. لكنه كان محاصراً أيضاً من طرف سرايا مجاهدي المسيلة ويوسعادة وأولاد نائل الذين جاؤوا لمناصرة إخوانهم في الزعاطشة والذين كبوه خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وقتل الضابط كاربوشيا وجنوده من قبضة المجاهدين بأعجوبة، حيث انبجبع مع جنوده الأحياء إلى جانب القتلى لإهام الثوار بأن الجيش الفرنسي قد قضى عليه تماماً.. ولم تؤكد كاربوشيا من مغادرة المجاهدين للمكان أمر جنوده بالقيام.. وفروا مسرعين إلى بسكرة.

كان هذا أول هجوم فرنسي على الزعاطشة للقضاء على الثورة ولكنه فشل فشلاً ذريعاً.. مما زاد من تأجيج نار الثورة في صفوف المواطنين (الأمازيغ) ودفعهم هذا النصر إلى الإلتفاف حول الثورة وتمديد لهيبها إلى مناطق أخرى.

II - المرحلة الثانية

بدأت المرحلة الثانية بتحريك الجنرال هيربيون لمحاصرة واحات الزعاطشة وقد انتظر نهاية فصل الصيف وانخفاض درجة الحرارة، حتى لا يتعرض الجيش الفرنسي لقيظ الصحراء.

تجمعت القوات الفرنسية بـ «كدي المائدة» المقابلة لبلدة الزعاطشة يوم 7 أكتوبر 1849 على الساعة الثامنة صباحا وقدر عدد الجنود بأربعة آلاف وأربعة مائة وثلاثة وتسعين (4493) جنديا (17).

والجدير بالذكر أن واحة الزعاطشة يحيط بها سور ضخّم لحمايتها من غارات الأعداء وتوجد بها عينان جاريّتان تعرفان بعين معكوف وعين الفوار، فضلا عن منتوجاتها الزراعية الكثيرة والمتنوعة كالتمور والحبوب والفواكه والخضر.

«ولحماية القرية من غارات الأعداء قام السكان ببناء خندق كبير يحيط بجميع المساكن وكان تقارب الديار بعضها ببعض يسهل كثيرا التنقل عبر السطوح دون النزول إلى الأرض وكان السكان من جهتهم قد فتحوا في حيطان كثيرة من المنازل منافذ صغيرة تسمح لهم بالتنقل من حي لآخر دون أن يظهروا إلى العيان» (18).

لا شك أن هذه التحصينات المحكمة، والغابات الكثيفة والمسافات التي تفصل بين الواحات.. كلّها مصاعب تجعل القوات الفرنسية في وضعية سيئة. لذلك كلما اقتربت من الزعاطشة إلا وتكدت خسائر فادحة أرغمتها على التراجع منهزمة.. مما جعل الجنرال هيربيون يشنكي من الوالي العام الجنرال شارون الذي لم يزوده بالقوات اللازمة للحصول على نتائج هامة وأعطى لهذه الواحات درسا لن تنساه، وتسلب عليهم عقوبات تبقى عبرة للأخريين (19).

ومن ترتيبات الحصار الذي ضربه هيربيون هو احتلال الزاوية التي تقع على مسافة نصف كيلومتر من الكدية، وبها مدرسة تعلوها مئذنة مرتفعة نسبيا وأن موقعها إستراتيجي يوفر جميع شروط تثبيت الحصار والإنطلاق للهجوم.

بدأت العمليات باحتلال مكان ربط الزعاطشة ببلدة طولقة بهدف منع سكان الواحة الأخيرة من تقديم أية مساعدة لجيرانهم، ثم صدرت الأوامر للمدفعية بأن تقصف أسوار البساتين المحيطة بالزاوية لإحداث ثغرة فيها.. وعندما هدمت بعض حيطان السور هجمت القوات الفرنسية على الزاوية ولكنهم وجدوا مقاومة مستميتة من طرف الثوار، فلولوا على أعقابهم بعدما تركوا وراءهم عددا من القتلى يقدر

ومما لا شك فيه أن هذا النصر قد لقي وقعا شديدا في نفوس سكان واحة خنقة - سيدي - ناجي.. فقام الشيخ المرباط سيدي عبد الحفيظ مقدم إخوان الرحمانية برفع لواء الجهاد.. فالتف حوله العديد من القبائل وتحرك الجميع لتحرير مدينة بسكرة.. وكان موكب المجاهدين يحظى في طريقه باستقبال حار من طرف سكان القرى المجاورة كما انضم إليهم العديد من الرجال من أجل نصرة الحق وإعلان كلمة الله أكبر.

ولما وصل الموكب إلى سريانة أصدر سيدي عبد الحفيظ أمره لخلفائه بحط الرحال والتمركز على الضفة اليسرى لواد براز لقضاء الليلة هناك.

وفي نفس الوقت أرسل الشيخ عبد الحفيظ رسولا إلى شيخ سيدي عقبة الباي بن شنوف يطلب منه المأذنة والإنضمام إلى جند المسلمين لمحاربة العدو المشترك. ولكن ابن شنوف غدر وخان وأسرع بإخبار السلطات الفرنسية.. فخرج قائد دائرة بسكرة سان جرمان في الحين على رأس قوة هائلة لبيّغت المجاهدين قبل طلوع الفجر.

حينما وصل سان جرمان واد براز وجد الهدوء مخيما على المكان وفي غياب الحراسة الكافية ضرب القائد الفرنسي الحصار على معسكر المجاهدين. ومع آذان الصبح انطلقت الرصاصات الأولى وبدأت المعركة وقاتل المسلمون كالأسد الضاربة وقلوبهم مفعمة بالإيمان، واستطاعوا في الساعات الأولى من المعركة أن يهزموا قوات العدو ويقتلوا قائدهم الرائد سان جرمان برصاصتين في الرأس (16).. لكن شدة المباغته وأحكام الحصار جعلت قوة المجاهدين تنقهقر وتتهزم. مما أجبر سيدي عبد الحفيظ على الإنسحاب من ميدان المعركة تاركا وراءه خسائر فادحة في الأرواح حوالي مائتي شهيد.. وأسرع إلى الإعتصام بالجبال المجاورة ريثما ينظم صفوفه ويجمع شتاته استعدادا للهجوم مرة أخرى وتخليص بسكرة من مخالب الإستعمار.

أما الفرنسيون فقد رجعوا إلى بسكرة ظافرين رغم أنهم خسروا قائدهم وجزءا هاما من قواتهم.

ولما وصل نعي سان جرمان إلى الجنرال هيربيون (HERBILLON) حاكم مقاطعة قسنطينة آنذاك، عين العقيد كريبوسيا خلفا له. ثم توجه بنفسه لمحاصرة الزعاطشة.

بخمسة وعشرين قتيلا منهم ضابط واحد وسبعة وأربعين من الجرحى (20) ثم نصبت بطارية للمدفعية في مكان يبعد عن الزاوية بحوالي سبعين مترا عن طريق ليشانة لكونه موقع هام للهجوم.. وعلى الفور شرع في تحصينه بإكياس مملوئة بالتراب.. لكنها تعرضت إلى وابل من رصاص المجاهدين.. ورغم ذلك فقد تم احتلال الزاوية ورفع فوق مؤننتها العلم الفرنسي وذلك من أجل إحكام قبضة الحصار على واحة الزعاطشة وتضييق الخناق عليها. وقد كلف ذلك القوات الفرنسية خسائر باهضة في الأرواح والعتاد.. غير أن الشيخ بوزيان استطاع أن ينفذ من هذا الحصار ويرسل الرسل إلى مختلف الأنحاء ليطلب النجدة والممدد لإستمرار مقاومة الأعداء. فتوافدت عليه الكتائب والإعانات من جميع الأعراس.. وتقيد المصادر التاريخية أن أجنادا كثيرة قد غادرت وادي سوف في طريقها إلى ميدان المعركة. كذلك أن خليفة الأمير عبد القادر الأسبق محمد الصغير بن أحمد بلحاج قد قدم إلى منطقة الزعاطشة على رأس كوكبة من الفرسان من نقطة (تونس) للقتال بجانب إخوانهم. كذلك انضمم القبائل الرحل التي غادرت التل إلى الثورة وقدموا كل ما لديهم من قوة، وما انفكت نجدات سكان بوسعادة وأولاد نائل وغيرها تصل إلى ميدان القتال.

III - المرحلة الأخيرة

طالب الجنرال هيريبون النجدة من السلطات الفرنسية والتي وصلته من قسنطينة وياتنة وبوسعادة وسكيكدة وعناية. فجدد الهجوم بقوة هائلة تحت قيادة ضباط بارزين ومشهورين في ميدان القتال أمثال بارال (BARRAL) والعقيد كانروبار (CANROBERT) ولورمال (LOURMEL) (21) والعقيد دومانتال (DOMANTEL) وقدرت بأكثر من ثمانمائة رجل (22)، فضلا عن عتادهم وأسلحتهم ومدافعهم دون ذكر المرتزقة والإحتياطية من أجل القضاء على الثورة بكل وحشية.

إن الحصار الذي ضرب على الزعاطشة منذ أوائل شهر أكتوبر قد استمر إلى يوم 28 نوفمبر 1849 تاريخ الهجوم الجديد الذي أعطيت فيه تعليمات بإبادة كل الواحة من قتل جميع الأحياء من أطفال ونساء وشيوخ وقطع كل الأشجار بما فيها النخيل مصدر رزق السكان، وتخريب كل المنازل وحرقها. ورغم ذلك صمد السكان أمام هذا الهجوم الكاسح ولم يطلب أي شخص من الزعاطشة «الآمان» - أي رفع العلم الأبيض للإستسلام - بل اشتبك الثوار مع الجنود الفرنسيين

بالسلاح الأبيض من شارع إلى شارع ومن دار إلى دار (23) حتى امتلات الشوارع بالجثث. وبعد معارك طاحنة احتلت القوات الفرنسية كل الشوارع والساحات والسطوح وذلك حوالي الساعة التاسعة صباحا (24) فسكتت المقاومة وأجهضوا على الجرحى المسلمين نكابة بهم.

«ويعد أن سقطت كل الدور وسكتت جميع الأرواح بقيت دار بوزيان قائمة ومنها كان يتصاعد الضرب، فوضع العدو في أساسها الألغام ونسفت بمن فيها على من فيها واختلطت النيران بالدخان والغبار وأثارت الجرحى بأصوات الحجارة المتهالكة، وبوسط الركام خرج بوزيان شامخ الرأس كأنه شبح صحابي من رفاق عقبة بن نافع فانهال عليه العدو ضربا قبل أن يتجلى عنه الغبار والدخان فسقط شهيدا مضرجا بدمائه. وبعد أن تأكد العدو أنه لم يبق في الزعاطشة حي من البشر ولا حية من الشجر، أقام على باب معسكر هيريبون مقصلة رفع عليها ثلاثة رؤوس: رأس الشيخ بوزيان ورأس ابنه الشاب (خوفا من أن يأخذ بثأر أبيه ذات يوم!) ورأس شيخ آخر طالما حارب الفرنسيين منذ 1833 وهو الحاج موسى الدرقاوي المعروف ببوحمارة» (25).

وصلت الأخبار إلى القبائل المختلفة، وعلمت بهذه الجرائم الشنيعة فتأثرت كثيرا وعزمت على الإنتقام لموتاهم والأخذ بالثأر على المساجد التي هدمتها مدافع الحصار ولغابات النخيل المقطوعة التي تعتبر ثروة الزعاطشة.

وفي هذا الصدد نظم الشاعر محمد ليشاني قصيدة طويلة من الشعر الملحون يذكر فيها بطولات ثورة الزعاطشة وقائدوها الشيخ بوزيان نورد منها بعض الأبيات:

الحمد لله

فرد الحمام اسعاني يحميك يا أبي الدونان

توصل الباي الصحراء سلم عليه بوزيان

بسم الله نبدأ القصة صارت في آخر الزمان

هذا الروم جار علينا اينور يرفد بوزيان

بوزيان راه واعر ماهو شي مهمول للخزيان

عنده صرب في لسانه وأهله كاملة شجعان

غير إلى راشق زويجة طبنجة بالفضة والمرجان
ناقلين أسوار تعجب وامثلثين بالطغان
ثم يقول:

ان شاء الله من حوضو نروا من عسل وخمر ولبان
تابعين طريق النبي ومصدقين يابوزيان
ان شاء الله في الدنيا تسعدوا في الجنة يقول مضمنا
ويختتم الشاعر قصيدته بالآيات التالية:
ناصرين الدين قبالة متوكلين على الرحمان
يرحم مبارك بن الاحمر وعلي بن داود فتان
الي قال القول امحمد ايشاني نظم غيوان
خيار القول على الهادي الصادق النبي العدنان(26)
كذلك خلد الشاعر بن الشرفي من قرية فلياش هذه الثورة في قصيدة رائعة،
بدأها بحمد الله والصلاة على الرسول الكريم ثم طرح السؤال التالي:
يادرا واشنه المقول بين سيدي وناس الكفار؟
الجواب:

جات ليهم قد الجردان	والعساكر مثل الوديان
يحلّفوا بعبادة الأوثان	لن نخلوها وتبقى قفرا
جملة من كل أوطان	من المدينة للغرب اتلمسان
لم عساكر حتى لوهران	ذي قضية ماذا جرى
والجزاير من كل مرسى	سكيدة وعنابة باتبات
على الزعاطشة تلاقات	تورخو يامن هو يقرأ
العساكر والقوم تدور	والمدافع تتعمر بالكور

ثم يقول:

حتى من ملايكة الرحمان	يقولوا ينصر بوزيان
لا تشفي فيه العديان	يمنعوا من هذا الداهية
شيعتكم وصلت للسلطان	حوست من الربعة اركان
الحضر وجميع العربان	حتى لتونس والبلديا

ويختتم الشاعر قصيدته بذكر اسمه وبالدعاء لنفسه
من كلام منظم بالساس جيب ما فيه تدساس
على بن الشرفي في فلياش بالله والطف بيا(27)

نتائج الثورة

لهذه الثورة نتائج عديدة يمكن إجمالها فيما يلي:

1 - انتهت ثورة الزعاطشة بخسائر فادحة حيث خربت الواحة بكاملها وعن
آخرها، أباد الجيش الفرنسي سكانها وقطع نخيلها واستعمل العدو عنف وقسوة
وارهاب يندى لها جبين الإنسانية.. من قطع الرؤوس البشرية وتعليقها على خناجر
البنادق والأبواب.. نكاية وتشفيا..

قد شهد شاهد من أهلهم عن فضاة الجنود الفرنسيين، حيث ذكر المؤرخ
الفرنسي المشهور والورع والقريب من الأحداث بوديكور BAUDICOUR «إن
الجنود (الزواف) قد انقضوا على الذين لم يسعفهم الحظ للهروب، حيث شاهد
جنديا مبتورا يداعب شدي امرأة مسكينة (أي يكاد يقطع حلمتها) وهي تطالب
سوى الإجهاض عليها لتتخلص من هذا العذاب.

وهناك جندي آخر حمل طفلا صغيرا من رجليه وضرب رأسه على الحائط
ليهشمه وغيرها من الأحداث الشنيعة التي لا يمكن وصفها»(28).

2 - أثارت ثورة الزعاطشة تضامنا دينيا ووطنيا رائعا أظهره كل الأهالي، ثم
ذلك التصميم العنيد الذي أفضّل كل مخططات العدو وأثار استغرابه وهو أنّ أحدا
لم ياته لطلب الأمان رغم فظاعة الحرب واليأس من الانتصار.

3 - احتلال مدينة بوسعادة حيث قامت فيها ثورة بقيادة محمد علي بن شبيبة.
وهو زعيم ديني دعا إلى الجهاد أثناء ثورة الزعاطشة وأرسل النجدة إلى بوزيان
وهاجم الحامية الفرنسية التي كانت في بوسعادة منذ 1843، فانضم إليه أولاد
نائل وعدد آخر من سكان الناحية.. وقد وصلت نجدة فرنسية من البرج ومن مجانة
وحاولت فك الحصار على الحامية التي التجأت إلى الجامع الكبير ببوسعادة وكانت
القوات الفرنسية بقيادة العقيد دumas قد هاجمت المدينة يوم 14 نوفمبر 1849،
واستطاعت فك الحصار وإنقاذ الحامية.. وبعد نجاح الضابط دumas في مهمته
فرض على السكان غرامة ثقيلة قدرت بثمانية آلاف فرنك، ونصب الضابط بأن
PEIN قائدا على المكتب العربي كما فرض على الأهالي بدفع أثمان ما عندهم من

الهوامش

- (1) - Paul AZAN, Conquête et Pacification de l'Algérie, Paris, Sans date, p. 396.
- (2) - Ibid, p. 398.
- (3) - Paul GAFFAREL, L'Algérie Conquise depuis la prise de Constantine jusqu'à nos jours, Paris, 1886, p. 169.
- (4) - Le commandant SEROKA, "Le Sud constantinois de 1830 à 1855" in Revue Africaine, no 56 (1912) p. 504.
- (5) - Le commandant SEROKA, op. cit., p. 387.
- (6) - Charles FERAUD, "Les Ben-djellab, Sultans de Touggourt, Notes historiques - sur le province de Constantine" in. R.A., no 28, (1884), p. 399.
- (7) - GAFFAREL, L'Algérie conquise, p. 169.
- (8) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول القسم الأول، الجزائر، 1992، ص 352.
- (9) - Louis BAUDICOUR, La guerre et le gouvernement de l'Algérie, Paris, 1853, p. 504.
- (10) - سعد الله، الحركة، ص 352.
- (11) - SEROKA, op. cit., p. 504.
- (12) - FERAUD, op. cit., p. 401.
- (13) - محمد العربي الزبيدي، مقاومة الجنوب للاحتلال الفرنسي، الجزائر، 1972، ص 53.
- (14) - BOUAZIZ BENGANA, Le Cheikh El-Arab, Etude historique sur la famille Bengana, Alger, 1930, p. 115.
- (15) - Paul AZAN, L'Armée d'Afrique, de 1830 à 1852, Paris, 1936, p. 444.
- (16) - AZAN, Conquête, p. 406.
- (17) - HERBILLON, Quelques pages d'un vieux cahier, souvenirs du général Herbillon, (1794-1866), publié par son petit fils, Paris, 1928, p. 136.
- (18) - الزبيدي، المقاومة، ص 67.
- (19) - HERBILLON, Quelques pages, p. 165.
- (20) - AZAN, op. cit., p. 467.
- (21) - HERBILLON, op. cit., p. 148.

زراعي ومنسوجات مما جعل الكثير منهم يفرّ من بوسعادة ويتوجه نحو القطر التونسي الشقيق، ولم يرجع.

4 - حرق واحة ناره التي تقع على وادي عبيدي بالأوراس، فقد لقيت مصيرا كمصير الزعاطشة على يد كاروبير الذي ترقى على إثرها إلى رتبة جنرال. فتقدم كاروبير إلى القرية على رأس قوة قوامها ثلاث فرق من الجيش وذلك يوم 5 جانفي 1850 فقتل وهدم وأحرق وسوى الأرض بها على من فيها.

5 - اندلعت ثورة زواوة والتي كان مسرحها المنطقة الواقعة بين تيزي وزو وسور الغزلان.. وجرّت معارك طاحنة انتهت باستشهاد الشريف (بومعزة) يوم 2 أكتوبر 1849 وكان مصير رأسه هو مصير رأس بوزيان (29)، إذ علّقه قائد مركز تيزي وزو على مقصلة في سوق الغزلان حتى يتيقن الناس من الخبر.

إنّ هذه الأحداث وغيرها، تدل دلالة واضحة على أنّ المعركة مع الاحتلال الفرنسي هي معركة واحدة سواء في الزيبان أو الأوراس أو جرجرة وإن تباعدت هذه المناطق.. وهو الشيء الذي منعها من الإتصال والتنسيق من أجل الوقوف كرجل واحد في وجه المحتل الدخيل الذي يريد أن يعطي لنفسه حقا ليس له.

6 - برهنت ثورة الزعاطشة على عجز العملاء والخونة.. وتيقنت السلطات الفرنسية من ضعف ابن قانة (شيخ العرب) بل ساورتهم الشكوك في ولائه، لذلك عاقبته السلطات الفرنسي بتقليص نفوذه، وزجّت به في تنافس داخلي مع أفراد أسرته، وتنافس خارجي مع أسرة بوعكاز. وأنشأوا قيادة جديدة في السحاري عينوا عليها بولخراس بن قانة، الذي سيلعب الدور البارز في ترسيخ أقدام الاحتلال الفرنسي في المنطقة وبذلك ينافس ويقتسم النفوذ مع بوعزيز بن قانة.

كما فتتوا المنطقة إلى قيادات جديدة جعلوا عليها قادة جدد حتى لا يترك النفوذ المباشر فيها لأولاد ابن قانة وحدهم، وقد اتبعت السلطات الفرنسية هذا الإجراء مع كل الأسر الجزائرية المتعاملة معها، حيث أعطتها سلطات محدودة تسمح للحاكم الفرنسي بالمراقبة عن كثب (30).

وأخيرا استطاع الاحتلال الفرنسي أن يفرض نفسه على المنطقة بقوة الحديد والنار وأن يسيطر على كامل الزيبان وهو بذلك يضع قدمه على أول عتبة للصحرَاء ليبدل إليها، لهذا فإنّ احتلال هذه المنطقة تعتبر مرحلة حاسمة للتوسع الإستعماري في الجزائر عامة والصحرَاء خاصة.

AZAN, op. cit., p. 408. - (22)

Ibid, p. 408. - (23)

HERBILLON, op. cit., p. 154. - (24)

(25) - سعد الله، الحركة، ص 355، انظر ذلك

HERBILLON, Quelques pages, pp. 154-155.

FERAUD, "Les Ben Djellab" in R.A. no 29 (1885), pp. 410-413. - (26)

Ibid, pp. 416-420. - (27)

Charles - André JUILLEN, Histoire de l'Algérie Contemporaine, la Conquête - (28)
et les debuts de la Colonisation, (1827-1871) 2è édition, Paris, PUF, 1979, p. 384.

V. REBOUD, "Bulletin" in R.A. no 30 (1886) pp. 79-80. - (29)

Archives d'ature-mer, AIX, 9H11, Note secret Surveillances des indigènes. - (30)

عبد السلام بنونة

راند الحركة الإستقلالية بالمغرب الأقصى*

د. مريم صفير

يعتبر الحاج عبد السلام بنونة أبرز الشخصيات التي سجلها تاريخ الحركة الوطنية المغربية، وأحد رموزها البارزين خلال العقد الأول من القرن العشرين.

مولده ونشأته

ولدت هذه الشخصية بمدينة تيطوان المغربية(1)، ورأت النور في تاريخ 3 جمادى الثانية من عام 1305 هجري، الموافق لـ 14 فبراير عام 1888 ميلادي(2)، حيث استطاع والده الحاج العربي بنونة احتلال مكانة هامة في المجتمع، فكان من رجالات الدولة البارزين في عهد السلطان المغربي مولاي الحسن والسلطان مولاي عبد العزيز(3) والظاهر أن مكانة أبيه سمحت لأسرته هي الأخرى أن تحضى بمنزلة مرموقة في الوسط التيطواني(4).

ومنذ ولادته وجد من يأخذ بيده ويعتني به حق العناية حيث رعاه جده من أمه الحاج عبد الكريم بريشة(5)، فكان لهذه النشأة أثر كبير في تكوين شخصيته.

(*) - هذا المقال جزء من دراسة جامعية أشرف عليها ا.د. ناصر الدين، ونظرا لأهميتها فإننا ارتأينا تقديمها للقارئ لتعم الفائدة.